القهر

أيمن محمد جبر مصطفى
مصر / مهندس كهرباء

في أول يوم لي كمعلم، سمعتهم جميعا يمتدحون المدير كأهم شخصية في المدرسة، لكني استشعرت من كلامهم غمزا ولمزا. في لقائه كان رقيقا وحلو اللسان، لكني أحسست من نبرة كلامه أن حلاوة لسانه هي خليط من أشياء لزجة، تصوب نظراته رسائل متناقضة، مثل من يتوعدك مبتسما أو من يسبك وهو فاتح ذراعيه ليضمك في حنان .

جاءني أحد المدرسين يعلمني بقوانين المدير الخاصة، نسبة من الراتب تعطى لوسيط بيننا، هذا مقابل التساهل في الحضور والانصراف؛ والتغاضي عن التقصير في الشرح للطلبة.. فأجبته أنني لن اقصر في هذه الأشياء، قال هذا لمصلحتك، كلنا نحتاج هذه التسهيلات كي نتمكن من الالتزام بالدروس الخاصة، كلنا يقصر في الشرح كي نجبر الطلبة على اللجوء للدرس الخاص، الفترة الدراسية راحة لأبداننا المنهكة وأعصابنا المستنزفة طوال النهار وحتى آخر الليل. أجبته أنني بالفعل سوف أعطي دروسا ولكني سألتزم بمواعيدي وبالشرح بكل أمانة للطلاب، لست في حاجة لدفع تلك الإتاوة ..

انخفض صوت الوسيط واتسعت عيناه قائلا: هناك أمر آخر لم أذكره، أنت تحتاج لأن يكف عنك شره، هذا ليس بالأمر الهين.. فهمت قصده ولكني رفضت .

في الصباح في أول حصة لي دخل المدير للتفتيش، قام بتقديمي للطلبة وتهنئتهم بفوزهم بمدرس ممتاز مثلي، ألقى على الطلبة بعض الأسئلة وتدرج فيها حتى فاجأهم بمسألة حسابية عويصة، لم أدر من أين أتى بها، ربما من كتب الألغاز الرياضية التي تتفنن في هذه الأسئلة، عندما عجز الطلبة عن حلها، تنحى جانبا وطلب منهم الإنصات لي وأنا أحل المسألة... وضحك وضحكوا وسال عرقي.

كان من عادتي الحضور مبكرا.. في ذلك اليوم تأخرت قليلا، كنت أقف أمام البوابة قبل موعد إغلاقها بدقيقتين، فإذا بالمدير يأمر بإغلاقها ثم يختفى من المشهد الذي تصدره الحارس، اعترضت قائلا: إنها أغلقت قبل الموعد، وأريته ساعتي، لم يلتفت إليها، قال: إنها متأخرة؛ طلبت منه أن يدخلني فلا يصح إيقافي بين التلاميذ هكذا، لم يرد، تركني والطلبة يتزايدون من حولي.. ويتزايد حرجي. جاء المدير بعد وقت يسير، حضوره كان كافيا لبلوغي قمة الشعور بالمهانة، وبخ الحارس وأنذره ألا يكررها، فلا يليق بالمعلم أن يمنع من الدخول مثل الطلبة، أقسم لي بأغلظ الأيمان؛ أن هذا السلوك من الحارس بدون علمه، دخلت بعد أن نفذت الطعنة الثانية في قلب كرامتي. علمت فيما بعد أنه كافأ الحارس بكرم حاتمي. تكررت محاولاته إهانتي دون أن يتصدر المشهد، هذا تلميذ يقدم شكوى ضدي؛ بأني أضغط عليه لنيل درس خاص، مدرس أخر يتودد لي؛ ثم علي غفلة مني يكشف أنيابه؛ ويشكوني في مذكرة رسمية. أحاطني تماما الشعور بالذل والقهر، أصبح النوم عسيرا، قادني الأرق إلى تقصير شديد في عملي، وشذوذ في سلوكي، فأصبحت أخرقا أمام الجميع، زادت نقاط ضعفي وكثرت عثراتي . تقدمت بطلبات للنقل، كان سدا منيعا بعلاقاته أمام الموافقة، حبسني تماما؛ فهو لن يقبل إلا استسلامي الكامل. ذهبت إلى صديقي المقرب وأخبرته: أنا الآن أمامك وقد أيقظتك في مثل هذا الوقت المتأخر، جئت إليك وأنا على وشك أن ارتكب غلطة عمري.. لقد قمت بشراء فرفر "وهو سلاح ناري من طلقة واحدة يصنع في الورش"، أهم بقتله لأرتاح من هذا العذاب.

أنصت إلي صديقي مندهشا، فلم يكن يعلم أن صديقه، الذي عرفه منذ الطفولة بتدينه وميله للمسالمة، قد يصل به الأمر إلى تلك الدرجة من الإنهيار، لكن القهر يخرج الوحوش من الصدور. قال لي: هون على نفسك؛ فلست وحدك، أطلب منك فقط أن تؤجل قرارك عدة أيام، لنفكر في عاقبته، ونحاول إيجاد بدائل قد تغني عن هذا التهور.

استسلمت له، ثم مضينا عدة ليال متتالية معا في النقاش.

ذات صباح ذهبت للمدرسة مبكرا، توجهت لحجرة المدير الذي كان من عادته البكور ليحصي على المدرسين هفواتهم، الغرفة خالية إلا منه، دخلت عليه وأغلقت الباب، توجهت إليه مسرعا، أخرست المفاجأة المدير، أقتربت منه، وقلت له: لقد قهرتني؛ لم تحسب حساب غضبي.. وكنت أنوي قتلك، لكني اكتفي مؤقتا بهذا كعربون عسى أن ترتدع، وصفعته صفعتين علي وجهه فكاد أن يقع ارضا؛ ثم انصرفت سريعا مستغلا وقع المفاجأة التي جعلته يتسمر في مكانه، حاول أن يستوعب ما حدث، فقد صفعه شاب في عمر أولاده دون شهود، فماذا سيفعل ؟ إن أعلن ما حدث؛ فسوف تكون نكته المدرسة، فالجميع يخشونه ويكرهونه، وانتشار تلك الحادثة سوف يحط من شأنه وتخبو شهرة حكايات أبي زيد الهلالي التي تلوكها الألسن فتزيد خوفهم منه؛ ان عرف أحدهم ذلك لن يخسر سواه، إذن ليكتم ما حدث، وليغير معاملته مع هذا الشاب الذي لا يأمن ردود أفعاله...

مرت الأيام وتغير الحال واستردت كرامتي... و في نهاية العام حضرت صديقي المقرب وصاحب ذلك الاقتراح العبقري حفلة تكريمي على لقب المدرس المثالي، وكان السيد المدير هو من رشحني لهذا الشرف الكبير.